الهندوسية

(وهي دين الغالبية في بلاد الهند)

من ألذ البحوث وأمتعها في عالم الدرس، البحث في أديان الهند. والهندي بطبيعته إنسان متدين يشغف بالروحانيات. ونحن إذا راقبنا عن كثب مفكريها وزهادها، وكيف يصارعون مشاكل الحياة والموت، ويسعون دائبين إلى معرفة الله، لا يسعنا إلا الإعجاب بزهد الألوف والربوات من شعوبها وتقواهم وورعهم.

وفي بلاد الهند أديان كثيرة. ولكن الهندوسية (Hinduism) هي دين الغالبية. وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها. ولكنها دين التطور، وبين ثناياها وثنية ساذجة، وآراء فلسفية سامية، وزهد صادق –كل هذه ممتزجة معاً بحيث يصعب الإلمام بالدين كله جملة واحدة.

الكتب المقدسة: Vedas

في تاريخ بعيد يرجع إلى سنة ١٥٠٠ ق.م. أخذ قسم من الجنس الآري يستوطن الأقاليم الغربية في بلاد الهند. وذهب قسم آخر إلى بلاد فارس، فكأنهم من السلالة عينها التي أنتجت أجناس الكلت والتيوتون والسلاف. أما دين أولئك المستوطنين الأولين فنجده في

أناشيدهم المقدسة Vedas. وآلهتهم هي الطبيعة والسماء وإله المطر وإله النار وما شاكلها. والهندوسية دين فرح متهلل، ويخيل إلينا أن أتباعه يعيشون دائماً في ربيع العالم، وآلهتهم ملتمعة براقة، ويلتمس الأتباع منها أن يعيشوا مائة من السنين، ومن ثم يترقبون الانطلاق للقاء أحبائهم في السماء.

وتقرب بعض أناشيدهم إلى الوحدانية. ونرى في شكل إله السماء Varuna آثاراً لبداية الاعتقاد بفكرة إله أدبي، التي كان يحتمل أن تتطور إلى فكرة روحية رفيعة الشأن.

ويتجه الميل عندهم إلى التفاضل بين آلهتهم المختلفة، والتفكير في كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره. وما تزال فكرة تعدد الآلهة هي الغالبة حتى اليوم في الهندوسية. ومع أن دين الكتب المقدسة Vedas قد اندثر تماماً في بلاد الهند، فإن الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة تتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات.

والكلمة veda تشير إلى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها إلى ٨٠٠– ٥٠٠ق.م. وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين. ولم يلبث الدين الآري الساذج حتى استحال إلى دين قوامه الذبائح والطقوس. ومما يقال إن الكتب البرهمية شملت من مصطلحات "الذبائح" أكثر مما جاء في كتب اليهود، أو أية مؤلفات أخرى. وأما الطقوس، فوراءها رغبة التملص

من الخطية والتصالح مع القوة السامية في الكون أينما كانت. ومع تطور فكرة الذبائح تطورت الفكرة عن الله، فهو الآن في نظرهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها، السائدة كل الأشياء والمتداخلة في كل الأشياء. والاسم الذي يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصي هو "براهما Brahma"، ويسمى أيضاً "Paramatma أو الذات السامية". وليس لهذا الجوهر صفات، ولا يوصف إلا بالأوصاف السلبية –أي لا يقال عنه أنه صالح أو عامل، لأن هذه الأفكار جامدة ومعينة وثابتة، والروح اللانهائي يمسي محدوداً متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف. والكلمة التي تطلق عادة على النفس البشرية Atma تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية Paramatma– و"براهما" هذا ليس خالقاً، فهو فكرة ذهنية أكثر منه إرادة عاملة. وإنما يُظن أنه خلق العالم على النحو الآتي: أخذ براهما يتأمل ويفكر، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة، تطورت إلى بيضة ذهبية، ومن تلك البيضة ولد براهما (مذكر) خالق كل الأشياء. وهذه الفكرة صعبة معقدة أمام عقل القارئ، ولكن حسبنا أن نقول هنا إن جوهر الكون –الله– عندهم هو إله غير شخصي، impersonal، ومع هذا البراهما "غير الشخصي" تقترن النفس البشرية وتتحد فيه.

وهـذه الأفكـار الدينيـة الفقهيـة مضـمرة غـير محـدودة في كتـبهم المقدسة القديمة، ولكن المفكرين المتأخرين هم الذين صاغوها أفكاراً في نظام متلاصق. وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذي يلجأ إليه المفكرون ورجال الدين.

نظام الطبقات

ولابد من كلمة هنا عن كيفية نشوء البراهمة وظهور الطبقات. فالبراهمة كما يؤخذ من مدلول اسمهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي. فهم كهنة الأمة لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم. وهم شعب مختار يقضون حياتهم تحت شروط صارمة وفي مظاهر عابسة. والحق أن تطور البراهمة قد استغرق أجيالاً طوالاً ونشأ عنه مساوئ شنيعة، ولكن لباب الفكرة هي إنشاء كهنوت ملكي لا يتدنس بلمس الخلائق الوضعية، كهنوت مفروض عليه الحياة المقدسة الطاهرة.

والبراهمة هم أسمى الطبقات. أما الطبقات الأخرى فكانت في الأصل (المحاربين) و(التجار) و(الخدم). وقد كان المحاربون أولاً أسمى الطبقات وأرقاها فحل البراهمة محلهم. ويرجع هذا التمايز بين الطبقات إلى العصور السحيقة. ولعله راجع إلى رغبة الغزاة الآريين القدماء في حفظ سلالتهم نقية. فلا يدنسها الامتزاج بالسكان الوطنيين في بلاد الهند، وهم جنس يختلف عن جنسهم، أسمر منهم في اللون وأحط في

درجة الرقي. والطبقات الثلاث العليا تمثل الأقسام الثلاثة الأصلية للهيئة الاجتماعية في عصورها الأولى. وأما الطبقة الدنيا فهم الخدم والأَجرى في الهيئة. وبعد هذه الطبقة الدنيا يجيء المنبوذون في نظام الطبقات (outcastes) –وهم في الأصل فريق من سكان البلاد الأصليين حالت وضاعتهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء. وقد قضت الهندوسية في عصورها المتأخرة أن يُوكل إلى البراهمة دون سواهم الوظائف الكهنوتية التي تفرضها الكتب المقدسة. وليس معنى هذا أن كل البراهمة منخرطون في سلك وظائف الكهنة، ولكن هذه الوظائف لا تُعطى لغير رجالهم. ونظام الطبقات هذا بما أنطوى عليه من الحظر الديني في امتزاج الناس بعضهم ببعض، والإحساس الحاد القوي بالميزة الاجتماعية واللونية، هو الرابطة التي تقوي الوشائج بين الهندوس في الهند، وهو في الوقت نفسه الحائل القوي دون تقدم الهند ورقيها. فالإنسان قد يولد فرداً في طبقته، أو قد يولد منبوذاً من كل طبقة. وفي أحياء كثيرة يُعتبر مجرد لمس المنبوذ دنساً ورجساً في نظر آخر من أبناء الطبقات. وفي أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار. وفي كل مكان ترى قواعد صارمة تمنع الموآكلة بين أبناء الطبقات المختلفة أو تناول طعام لمسته أيدي أحدهم. والخطر كل الخطر في مخالفة هذه القواعد. أما التزاوج بين الطبقات فقد حرم من زمن بعيد، وما يزال

هذا الحرمان قائماً في أشد أوضاعه.

والحق أن لنظام الطبقات في بلاد الهند على ما هو عليه من صرامة وجمود أبعد الأثر في حياة الشعب الهندي. فهو يقضي بإقصاء خمسين مليوناً من المنبوذين عن الحياة العامة إقصاءً تاماً، وهو ظل قائم يتبع المرء في يوم مولده إلى يوم حتفه. فهو قد يفكر ما شاء له التفكير، ولكنه يوم يعتدي على قواعد نظام الطبقات، فقد أمسى لساعته طريداً محتقراً Pariah لا يُقام لوجوده وزن بين أسرته وأصدقائه والذين عاش فيما بينهم، أمسى كلباً منبوذاً شارداً outcaste.

تعاليم ثلاثة خطيرة: تجوال الروح، الأعمال، الانطلاق

وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الأحكام والأناشيد، فهناك فِكَر ثلاث تؤثر أعمق الأثر في العقلية الهندية– أولها فكرة تجوال الروح. فهم يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة في أطوار شتى من الوجود. تنتقل من جسد إلى آخر، سواء أكان في الإنسان أم الحيوان، في طريقها إلى هدفها الأخير. وهذه الفكرة التي تُعرف عادة بتناسخ الأرواح، والتي لها نظائر في كثير من بلدان أخرى، متأصلة تأصلاً عميقاً في قلب الهند.

أما الفكرة الثانية فهي فكرة الأعمال (Karma) وهي متممة لفكرة تجوال الروح. وهي لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة

التي تنتقل فيها الروح، بل تبين أيضاً شرائط هذا الميلاد، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة في المصير البشري. وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً، وأن كل شيء يختبره الإنسان في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق، وهي بمثابة كفارة.

والكرما معناها العمل. وفي هذه الحالة العمل الذي لابد منه في الحياة. فهناك ناموس جامد للعلة والمعلول، للعمل والجزاء. وقد عرف الهنود الآريون –كما عرف العبرانيون فيما بعد– أن الجزاء في هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع العمل ولا يتكافأ معه. لذلك ابتكر الهنود نظرية تناسخ الأرواح لحل هذا الإشكال. فجسد الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته واختباره وسعادته وآلامه –هذه كلها جماع الجزاء الذي تستحقه أعماله التي أتاها في وجود سابق، صالحة كانت أو شريرة.

والأعمال التي يأتيها المرء في وجوده الحاضر، صالحة كانت أو شريرة، تهيئ طوراً جديداً للتفكير والاستغفار. وكأن كل إنسان مربوط إلى عجلة تدور دورات متتاليات لتقرير مصيره المحتوم في نهاية الأمر. وهو لا يقدر أن يوقف أو يبدل عملية هذا التطور والدوران المستمر، ولا يمكن لأي إنسان آخر أن يعينه في ذلك. ولناموس "تجوال الروح" الآن –أو على الأقل كان له من قبل– قيمة أدبية خاصة إذ ينطوي

على مسئولية أدبية، ولكنه يسلب الحياة معناها ويجردها من كل أمانيها الاجتماعية. فكل فضيلة، وكل تضحية للذات، يجب أن تتجه إلى خدمة النفس وخيرها دون سواها. ثم أن فكرته في النظام الأدبي لا تعدو حد العقوبة أو المثوبة، أما فكرة افتداء النفس أو غفران آثامها فبعيدة عن هذا الناموس كل البعد. وكأن الله قد ربط كلاً منا إلى عجلة دائرة تتناوبها الأفراح والأحزان، ويبقى هو بعيداً عنها لا دخل له فيها.

ومن نقائص "الكرما" أيضاً أن الذاكرة لا تتخطى الثغرة القائمة بين وجود وآخر. وقد قيل أن هذا التعليم يعني "أن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد"، ولكن من المتعذر علينا حقاً أن نرى القيمة الأدبية في عقاب يحل بحياة عن أعمال في حياة سابقة لها، إن لم يكن هناك شعور يقرن الحياتين معاً.

أما الفكرة الثالثة، أو التعليم الثالث، فهي فكرة الانطلاق، وهي تمثل محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها. فالحياة الشخصية في عرف القوم شرق وأسر وخداع. أما الحياة الحقة فهي استجلاء طلعة "براهما" التي لا يُكتسب إلا بالاندماج فيه، كما تندمج قطرة الماء في المحيط الخفم. وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لن يُكتسب بالأعمال، لأن الأعمال الصالحة تنتج ثمارها عن طريق

الميلاد المتكرر، كما تفعل الأعمال الشريرة تماماً. إنما يجيء الانطلاق عن طريق الاستنارة الإلهية. وقد أفسد هذا ما في "تجوال الروح" من القيمة الأدبية. لأن الأهمية معلقة على فضائل التصوف والزهد، وليست على الأعمال الصالحة التي لا ينشأ عنها إلا ميلاد أفضل ووجود أرقى من الوجود السابق الذي كان عليه الإنسان. وليس للأعمال الصالحة شأن في الانطلاق المروم. إنما عن طريق التأمل والزهد تقف دورات الحياة. ويبطل تطور الوجود، ويتحد الإنسان بالله.

مؤثرات البوقية

ثم ننتقل إلى نواح أخرى: فمن سنة ٥٠٠ إلى سنة ٢٠٠ق.م. قامت البوذية في بلاد الهند وترعرعت. ولعل نهوضها في تلك الفترة من الزمن يرجع إلى تمرد القوم على إجراءات رجال الكهنوت وسوء استعمال سلطتهم، ولو أن هذا ليس من الأمور المؤكدة على وجه التحقيق. ولم يُعن بوذا بالله، إنما عُني قبل كل شيء بطريق الحياة السوي. والواقع أن ما تضمنته الهندوسية من فضائل، كدعة النفس وبساطة الحياة والتواضع، ترجع في الأكثر إلى مؤثرات بوذا. وإليه أيضاً يرجع الفضل في احترام حياة الحيوان، فإن فكرة الامتناع عن ذبح الأبقار وأكل لحمها التي يعتنقها كل هندوسي يرجع تاريخها على الأرجح إلى ذلك العصر البعيد من الزمن.

ظهور فكرة التجسد

وقد كان للاحتكاك بين البوذية والهندوسية أثر آخر على الأخيرة. فإن ما انطوت عليه البوذية من الإلحاد والآداب الباردة لا يُرضي الإنسان العادي ولا يشبع شيئاً من حاجات نفسه الدينية. وكان هذا مع المؤثرات الأخرى حافزاً للهندوسية لأن تخرج فكرة "المظاهر المتجسدة للآلهة incarnations". وهي فكرة لم تظهر في الوجود إلا حوالي سنة ٥٠٠ق.م. أي بعد غزو البوذية لبلاد الهند. وقامت هذه الفكرة على أن Vishnu الإله الحافظ وSiva الإله المدمر– كونا بالاشتراك مع "براهما" ثالوثاً بدت مظاهره المتجسدة في أوضاع شتى. وكان من نتيجة ذلك أن عُبد Siva إله الدمار تحت اسمه وأسماء أخرى بالاشتراك مع زوجته Kali. وأكثر عبادة هذا الإله قائمة على البطر والفسق. ومع ذلك فقد نشأت في جنوب بلاد الهند جماعة عمدت إلى كتابة مؤلفات خشوعية دينية حول اسم Siva هي أنبل ما أخرجته بلاد الهند من الكتب الدينية. أما الإله Vishnu فله مظاهر متجسدة كثيرة: أهمها في Rama وKrishna –وقد جاءت قصة Rama وزوجته في إحدى أقاصيص الهند الشعرية العريقة في القدم. وأما المظهر المتجسد الآخر Krishna فقد جاءت روايته في قصة شعرية أخرى يعجب بها الهندوس إيما إعجاب، ويعدونها "جنة رائعة قد نضجت ثمارها اللذيذة وأينعت أزهارها الفياحة، وترويها

ينابيع دائمة على مدار السنة".

وفي أواخر تلك الفترة من الزمن ظهرت مؤلفات اصطبغ فيها "كرشنا" بألوان مختلفة. وهو في تلك المؤلفات المظهر المتجسد للشهوة. وكان لأقاصيص غرامه أعمق الأثر في إفساد حياة الملايين في بلاد الهند. وهذا مثل على فساد فكرة التجسد عند القوم. فقد كانت سلاحاً خطراً، وحول أبطالها ومظاهرها صنف الناس أقاصيص شتى صالحة وشريرة على السواء. أما الحق التاريخي فقلما أعاره القوم شيئاً من عنايتهم. وكان من جراء ذلك أن أندمج في سجل الآلهة عدد لا حصر له من صغار الآلهة تتفاوت أقدارهم الأدبية. فأخذت الهندسية في التدهور والانحطاط.

وفي الهندوسية الحديثة نهضتان بارزتان. أولهما تعاليم (Vedanta). فإنه في الخمس مائة سنة ما بين ٥٠٠ و١٠٠٠ب.م. لم يُعرف إلا القليل عن تاريخ الهندوسية. ولكن ظهر في القرن التاسع زعيم ديني يدعى "سنكاراشا"، فنادى بما ظنه المبادئ الطاهرة النقية المنطوية تحت الأناشيد الدينية التي تضمنتها كتبهم المقدسة Veda، وأطلق على نظامه اسم Vedanta، وهي الفلسفة التي يشغف بها الهندي المثقف في هذا العصر. ويراهما في نظر هذا الزعيم هو الحق، والأنفس المفردة واحدة فيه. فإذا ما فرغت سلسلة التوالد، وأبطلت الروح تجوالها من وجود إلى آخر، اندمجت في

براهما وصارت واحداً فيه. ويضيف الزعيم إلى ذلك أن الكون ليس حقيقة غامضة مبهمة وحسب. بل هو وهم وخداع وطيف زائل. وأنفس الأفراد مندمجة في الحقيقة مع براهما. وهذا الطيف الزائل، أي العالم، هو الحجاب الوحيد الذي يحول دون تحقيق هذا الاندماج وتوحيد الذاتية. والخلاص يجيء عن طريق هدم هذا الحجاب، وتبديد هذا الخداع المضلل والطيف الزائل. وقد تملكت هذه الفلسفة من عقل الهندوسي واحتلت هذه الفكرة –فكرة وهمية الكون وزواله– مكانة سامية في تفكير الهنود بحيث أضحت تسير جنباً إلى جنب مع التعاليم الثلاثة الأخرى وهي: تجوال الروح –وتأثير الأعمال– وانطلاق النفس أخيراً.

وأما النهضة الثانية فهي فلسفة الخشوع والتعبد Bhakti التي ظهرت في الفترة ما بين ١٤٠٠ و١٨٠٠ب.م. وتقترن بأسماء ثلاثة من كبار الزعماء الذين أسسوا مذاهب السكيين وغيرهم. وهم قد أدخلوا إلى الفلسفة الهندوسية التي تدين بكائن أسمى غير شخصي، لا ذات مستقلة له –فكرة الإله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع. ولعلهم تأثروا في ذلك بالآراء الإسلامية التي كانت قد ظهرت في الهند في ذلك العصر. ونبغ بين دعاة هذه الفلسفة قديسون أظهرهم "تولسي داس" الذي عاش في القرن السادس عشر، والذي نقل الأقاصيص الدينية المقدسة إلى لغة عامة الشعب، فتناولتها العامة

وراحت تنشدها في قرى الهند، وتتلوها في كل مكان، وتمثلها في الأعياد والمواسم.

وكان أولئك القديسون، بما أدخلوا على الديانة الهندوسية من فكرة الإله الشخصي الذي يليق له التعبد والخشوع، أسمى من مثلوا فكرة الإيمان بالله في بلاد الهند، وهم ينتمون إلى طبقات مختلفة، وكثيرون منهم من عامة الشعب، فبينهم النساجون وصانعو الفخار الذين خلوا من المواهب سوى الإلهام الديني. وكان بعضهم من المصلحين حقاً الذين نبذوا الأوثان وفوارق الطبقات ومجرد الطقوس الظاهرية، وأحسوا بوجود الله إحساساً غريباً. وهم قد آمنوا بإله سام ولو أنهم في بعض الأحيان قد أخرجوا أفكاراً غشيمة فجة، وعزوا بعض الأفكار الروحية المتعلقة بالله إلى أشباح ورموز غير لائقة.

ولقد أصر أولئك القديسون المتعبدون Bhakti على النعمة التي قد تكون تمهيداً لتعليم أعمق وأرقى. على أنه ينبغي أن نعلم أن الخلاص أو "الإطلاق الذي تكلم عنه القديسون والحكماء –حتى في دين جماعة الBhakti– انصرف فقط إلى الخلاص من سحر العالم وغوايته، ومن تعذيب الولادة المتكررة، ومن التجوال الذي لا نهاية له من وجود إلى وجود بعده.

دين المنبوذين

ومن المؤلم حقاً أنه في كل هذه الأدوار التي أخصبت الأفكار

والممارسات الهندوسية لم يكن للمنبوذين Outcastes ثمة نصيب. وقد يكون مثاراً للنزاع أن نعدهم طائفة من طوائف الهندوسيين. فإنه لا تشابه بين دينهم وبين العقائد التي شرحناها، فدينهم في مجموعة أشبه بعبادة الأرواح التي اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة. وأعظم الآلهة في قرية المنبوذين ليس "سيفاً Siva" ولا "فشنو Vishnu"، بل ربما كومة من الآجر تمثل أم القرية أو شيطانها، الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات، ويرعى القرية برعايته وعنايته. وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة. وحالته الاجتماعية الدينية في أحط الدركات، والهندوسية المحافظة لا تُعنى به شيئاً.

جهود المصلحين

وفي السنوات الأخيرة بُذلت الجهود المتوالية لرفع شأن أولئك المنبوذين وتحسين حالتهم السيئة. ونهضت جماعات في بلاد الهند للإصلاح ارتضت قبول المنبوذين في عضويتها رغبة في تطهير الهندوسية من هذه اللوثة اللاصقة بها، والقضاء على فكرة التمييز بين الطبقات.

وبين تلك الجماعات Brahma Samaj وهي طائفة تؤمن بالله. ووجهة نظرها في الله وفي يسوع المسيح أشبه بوجهة نظر من

نسميهم "موحدين Unitarians". وهي تكاد تكون منفصلة عن الهندوسية الأصلية، قليلة العدد، يعوزها العزم والقوة، ولكنها أدت بعض الخدمات النافعة إلى طوائف المنبوذين. وأمثال هذه جماعات أخرى نهضت لمكافحة هذه السيئة الاجتماعية، وهي حين تصدر عن الهندوسيين المحافظين، يكون الباعث إليها الحسد والغيرة من المسليات المسيحية، التي تعمل ناشطة لرفع شأن أولئك المنبوذين واكتسابهم إلى أحضان المسيحية التي تقدس الشخصية البشرية مهما كانت وضيعة. ومع أن الضمير الهندوسي المثقف قد أدرك ما في نظام الطبقات من سوء وشناعة، فإنه لم يفعل حتى الآن شيئاً جدياً للخروج عن تلك التقاليد الجامدة التي أحكم المحافظون الرجعيون حياكتها حول أولئك المنبوذين التاعسين الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً.

الخلاصة

ونستخلص من هذا البحث أن الديانة الهندوسية تشمل طرائق دينية كثيرة منفصلة بعضها عن بعض، وهي ذات معان متعددة مختلفة. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

يُحسب الهندوسي هندوسياً متى ولد في طبقة من الطبقات المعروفة وحافظ على تقاليدها وقواعدها، ولو أن كثيرين من المثقفين يعتدون على هذه القواعد الوضعية ويتملصون منها. ويؤمن الهندوسي بنظام الطبقات، ويحترم أسفاره المقدسة Vedas ويوقر البراهمة. ثم يحسب

البقرة مقدسة، وتتسلط على عقله معتقدات تناسخ الأرواح، وانطلاق النفس أخيراً من قيود هذا التجوال وآثار أعماله صالحة كانت أم شريرة، ثم يميل به الرأي إلى مذهب الحلول الإلهي في الطبيعة. وهو إن كان مثقفاً مهذباً فهو ينكر تعدد الآلهة ولا يؤمن بها. وإن كان وطنياً متحمساً ومن رجال أحزاب الإصلاح فهو يرتاب كثيراً من صحة نظام الطبقات. وإن كان برهمياً، فهو يؤمن بالأوضاع الأولى للديانة الهندوسية ويحفظ الطقوس والمراسم القديمة، ويعبد الإله "سيفا" أو الإله "فشنو"، ويدرس الأسفار المقدسة أو بعض المذاهب الفلسفية الهندوسية. وأما إن كان قروياً عادياً، فيحفظ الطقوس ويعبد "راما" أو "كرشنا" أو "سيفا" أو الإله القرد أو زوجة الإله سيفا. وإن كان منبوذاً فإلهه شيطان القرية.

وللهندوسية أوضاع شتى تتفاوت بين فلسفة الحلول الإلهي في الطبيعة، ثم تأخذ في الانحدار حتى تصل إلى عبادة الأرواح الشريرة. ومن الصعب جداً التمييز بين هذه الأوضاع المتفاوتة. ولعلنا نقرب إلى الصواب إذا قلنا أن أقوى العوامل تأثيراً في الهندوسيين من أعلى الطبقات إلى أدناها هي:

١- نظام الطبقات.

٢- الفكرة بأن الله هو الحق الوحيد.

٣- الفكرة بأن العالم وهم وخداع وتضليل.

٤- ثم الفكرة المثلثة عن الأعمال (الكارما)، وتناسخ الأرواح، وانطلاق النفس واندماجها في الكائن الأسمى.

أية فكرة عن اللّه تشبع قلب الهندوسي؟

وبعدُ، ما الرسالة المسيحية لأمثال هؤلاء القوم؟

إنها قبل كل شيء تحمل إليهم رسالة الله. لأنه وحده دون سواه مستطيع أن يشبع قلب الهندوسي التائق. وقد عرفنا من بحثنا في طرائق التفكير الهندوسية عن الله أن للقوم اتجاهين. الأول التفكير في الله إلهاً مجرداً عن الشخصية. هو روح العالم، وهو الحق الوحيد الجاثم وراء خداع وبطلان هذا الوجود العالمي والاتجاه الثاني تصور الله في أشباح متجسدة مثل راما وكرشنا وما أشبه. فالاتجاه الأول يحتفظ بسمو الله وصفاته الجامعة، ولكنه لا يعطي القوم إلهاً يرفعون إليه الصلاة. والاتجاه الثاني يشبع رغبات الإنسان من حيث تعيين صفات الله وتحديدها، ولكنه يفقد معالم صفات الله الجامعة المطلقة. ولهذين الاتجاهين آثار ظاهرة في حياة الهنود كما نشاهدها في هذا العصر. والذي يرومه الهندوسي وتتوق إليه نفسه الجائعة لن يجده إلا في الله المعلن في المسيح. إذا تحمل إليه الرسالة المسيحية إلهاً جامعاً سامياً، هو صانع الكون والحال فيه. وهو فوق ذلك معلن في التاريخ البشري، وفي وجه بشري -إلهاً هو المحبة.

الغفران

ويجيء الإيمان الصحيح في الله بشيء آخر تفتقر إليه بلاد الهند، وهو الشعور بالخطية والحاجة إلى الغفران. ولا يعوز بلاد الهند الحنين إلى الافتداء، ولكنه عندهم افتداء من ضيقات هذا العالم الحاضر وويلاته، اقتداء من خداع الحياة وأباطيلها التي تحجب عن الأنظار وجه الكائن الأسمى. فهي لا تروم الفداء من بطش الخطية وسطوتها، ولمن يمكنها أن تفعل ذلك. وهي تترنح بين إله مجرد عن الشخصية، وآلهة محدودة القوى ناقصة في الكمالات الأدبية. والذي تفتقر إليه الهند رؤيا الله القدوس، الذي تعلو قداسته فوق كل المعايير البشرية. وقد تأصلت في نفسها بفضل عقيدة "الكارما" الفكرة بأن كل عمل يأتيه الفرد ينتج أثره، وأن الخطية تنال عقابها بموجب ناموس جامد لا هوادة فيه. ولم تنهض قط إلى إدراك فكرة الغفران، لا الغفران الذي يتجاوز عن الشر في تراخ وإحساس بليد، بل الغفران الذي يحمل الخطايا إلى قلب "الله" ذاته.

مبدأ الإخاء

ومن الهبات التي يمكن أن تفوز بها الهند من المسيحية روح الإخاء. وهين أن نقول إن الغرب لا يبدي للملأ شيئاً من آثار المسيحية من هذه الناحية. وعلى الرغم من هذا فإنا لا ننسى أن المسيحية قد ألغت الرق. وحيثما تذهب المسيحية ويكون الإيمان

بالمسيح حقاً، وفعلاً لا يسع أتباعها إلا أن يشعروا أن المسيح قد جعل الكل واحداً. ولن يقول مكابر أن في المسيحية شيئاً من هذا التمييز بين الطبقات. لأن مثل هذا النظام يدعو إلى إخاء محدود بقيوم وأحكام، يقتصر على أفراد الطبقة الواحدة أو الطائفة الواحدة كما تفعل بعض الأديان الأخرى، أما في المسيحية فالإخاء رابطة جامعة شاملة. ولهذا نرى المنبوذين الأنجاس في بلاد الهند يهرعون إلى الكنسية المسيحية جماعات وزرافات بحيث يتعذر على المرسلين هناك تلبية كل الطلبات. والمصلحون من الهندوسيين يعترفون بهذا الفضل للمسيحية. فقد قال "رام موهن روي" الشهير، وهو صاحب الفضل في إبطال عادة إحراق الأرملة مع بعلها المتوفي: "لقد تبين لي من البحوث الطويلة الدقيقة في الأديان أن تعاليم المسيح أكثر انطباقاً على المبادئ الأدبية، وأكثر ملائمة للخلائق العاقلة من أي تعاليم أخرى".

الدين العملي

وأخيراً نشير إلى عنصر له شأنه في رسالة المسيحية بالنسبة للهند. ذلك أن الإيمان بالمسيح ينتشل الهند من ربقة التشاؤم من العالم الحاضر ويعينها على أن تظفر بقداسة وخلاص عمليين بكل معنى الكلمة. ولسنا ننكر أن الهند تدرك حقيقة العالم الروحي، ولكنها استنامت إلى خلاص هو الانطلاق من عالم مضن مُنهك. وليس ملكوت الله في نظرهم نتيجة جهود الإنسان وأعماله، فلا شأن

للهندي بالمبادئ الدينية ذات الصبغة العملية. أما الحياة في نظر المسيحي فهي الميدان الذي تكمل فيه إرادة الله، وممالك الأرض ستكون يوماً ملك الله ومسيحه: وفي التلمذة المسيحية جهد فائز، وقوة نابضة، وانتظار عملي. وسيأتي يوم يجد فيه التائقون إلى الانطلاق خلاص نفوسهم الحقيق في المسيح، وفي خدمته في عالم البشر.